الكتاب : أركيولوجيا التشيع بالمغرب

أركيولوجيا التشيع بالمغرب

الملف الصحفي ... الرباط - منتصر حمادة
ما هي مستجدات ظاهرة التشيع بالمغرب؟ وهل يصح الحديث عن تنظيم شيعي سري، أم أن المسألة لا تتجاوز أفراد متناثرين، وبالتالي لا تستدعي كل هذا القلق كما يشير إلى ذلك الباحث المغربي محمد ضريف، أحد أبرز المتتبعين لملف الحركات الإسلامية، ألا يؤشر وجود أربعة آية الله مغاربة على تفشي التشيع بالمغرب؟ ما هو واقع الجاليات المغربية في الديار الأوروبية أمام المد التبشيري الشيعي؟ ألا تساهم التقية الشيعية في تعقيد الأمور لمعرفة الحجم الحقيقي للمتشيعين المغاربة؟ أسئلة ضمن أخرى، يصعب الحسم فيها وذلك بسبب حاجز التقية القائم عند بعض الأسماء الشيعية، أو ذات الميولات الشيعية، سياسية أكثر مما هي عقائدية، وحتى الفعاليات الإسلامية، ومنها "السلفية العلمية"
سوف نكتفي في هذا المقام باستعراض لفتات عابرة حول التشيع بـ المغرب، مقدماته التاريخية، بتقاطعاتة السياسية والمذهبية والإ يديولوجية، واقعه وآفاقه، أسباب اختراقه للجسم الإسلامي الحركي العريض، وتستعرض ردود بعض الفعاليات الإسلامية والعلمية بخصوص واقع التشيع في المغرب السني المالكي الأشعري.
حب آل البيت وشماعة التشيع
معلوم أن المغاربة يحبون آل البيت بطبعهم، حتى أن كتب التاريخ المغربية التي تعرضت لمحن آل البيت، نجد نفسا شيعيا، دون أن يكون بـ الضرورة عقديا، على خلاف التأويل الشيعي الفج، ومن هذه المؤلفات نجد "الدر السني" وكتاب "الإشراف بذكر ما حل في فاس من المشاهير ا لأشراف"، أو "الدرر البهية في الأنفاس الحسنية لادريس العلوي" والذي طبعته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. كما أننا نقرأ في كتاب "المعيار المعرب" (ق10) لأبو القاسم الزياني جماعة الوّهبية، وهي جماعة أباظية (من الخوارج) وتغلغت في المغرب بسبب حب المغاربة لآ ل البيت حتى لقوا السند الكبير من قبل الشيخ أحمد التيجاني.

وسواء تعلق الأمر بالأدارسة (الذين أدخلوا الإسلام للمغرب الأقصى) أو المرابطين والموحدين والمرينيين ثم السعديين فالعلويين، فقد قامت

هذه الدول على العصبية لآل البيت. وهي الشماعة العقائدية التي تلعب بها الشيعة في الحوزة، أي شماعة "الشيعة في عهد الأدارسة"، والحال أن المذهب الشيعي لم يتبلور إلا في القرن الرابع الهجري.
تتحمل الطريقة الصديقية مسؤولية كبيرة في تسهيل التغلغل الشيعي ب المغرب، وتعود أصل الحكاية إلى زيارة شيخ الطريقة، مولاي أحمد بن الصديق، للمشرق، في عز تصاعد المد المعتزلي، متأثرا بكتابات محمد بن عقيل (من الشيعة الإمامية) مؤلف كتاب "العتب الجميل لأهل الجرح و التعديل" حيث الهجوم على أهل الأئمة والحديث. وهو شيخ أشعري تأثر بمشايخ من حضرموت باليمن.
بعد عودة بن الصديق من مصر، قام بنشر هذا الفكر وخلفه عبد العزيز من الصديق، الذي كان يميل إلى آل البيت، وهناك حاليا في طنجة مكتبة العلامة عبد العزيز بن الصديق، تساهم بصيغة أو بأخرى في نشر الفكر الشيعي حسب ما يشير إليه أحد المحققين المغاربة. (وتحديدا عقائد "الشيعة الإمامية")
لم تقم الثورة الإيرانية التي تأثرت بفكر "الإخوان المسلمين"، وخاصة حسن البنا - وهناك اعترافات شيعية في هذا الصدد - سوى برد الجميل الحركي لمجموع الحركات الإسلامية في الدول الإسلامية السنية، على اعتبار أنها قدمت بعد منعطفات رسخت أقدمها في تاريخ الذل والضعف والرضوخ للآخر، وتتقدمها بطبيعة الحال النكسة، زيارة أنور السادات لتل أبيب، القمع السوري والعراقي للإخوان المسلمين، ونكسات إسلامية متفرقة. ونضيف عليها فشل قيام الثورات الإسلامية في الدول السنية، على عكس الدولة الشيعية(1)
أضحت الثورة الإيرانية، كأنها "معجزة"، والطريف/المؤسف أنها تزامنت مع بداية القرن الرابع عشر الهجري، حيث الإحالة الضمنية على الأثر النبوي الذي يتحدث عن "بعث مجدد القرن"(2)
آليات ومراحل التشيع

تجمع العديد من الشهادات الإسلامية الحركية على أن أهم آليات الا ختراق الشيعي في المغرب مرت عبر العمال المغاربة في العديد من الدول الأوروبية، وخاصة في إسبانيا وبلجيكا، عبر عناصر جزائرية على الخصوص، وموازاة مع هذه الأنشطة، كانت العديد من المؤسسات الشيعية التي تحتضن "المستبصرين" وهناك منشورات ترسل من قبل إيران لهؤلاء.
بالنسبة لأهم مراحل التشيع، فتتوزع على "التخلية"، وتقوم على إزالة المعتقدات القديمة "السنية". و"التحلية" وتقوم على غرس العقائد الشيعية.
لو صح الحديث عن مراتب التشيع في المغرب السني الأشعري المالكي، لجاز لنا تصنيف أربعة أسماء وصلت إلى مرتبة "آية الله" (من فاس ومراكش وطنجة)، تشبعت حتى النخاع بالمذهب الشيعي، ونضيف معها

ثلاثة أسماء وازنة:
·?(م. خ)، يبلغ من العمر حوالي السبعين عاما، إمام وخطيب مسجد بطنجة، وقاضي سابق، لديه أتباع وصدى كبير في المنطقة.
·?(ا. م) شيخ من تطوان، يبلغ من العمر 88 سنة، اشتهر، كغيره من غلاة الشيعة بالعداء للوهابية.
·?(ع. م)، من تلامذة عبد الله التليذي، يوجد حاليا في ألمانيا، وكان يحضر دروسا فقهية للشيخ أحمد ابن الصديق بطنجة.
أغلب الشيعة المغاربة درسوا في حوزات حلب بسوريا أو قم بإيران، عبر أسماء معروفة يتقدمها محمد حسين فضل الله.
إلى جانب هؤلاء، نجد بعض الباحثين المتهمين من قبل الحركات الإسلا مية بالتشيع، ويتقدمهم بطبيعة الحال الباحث مصطفى بوهندي و الباحثة خ. ب، الأول متهم من التيار السلفي بأنه يتقاطع مع الشيعة في طعنه في الصحابي أبو هريرة والثانية تتقاطع مع الشيعة في طعنها في الإمام البخاري.
وعلى ذمة أحد المؤرخين المغاربة، فإن مؤلفات هذين الباحثين "تشكل خطرا دينيا وثقافيا وفكريا على المغرب".

والمثير حقا حسب الأوساط الإسلامية أن باحثين من تيار "السلفية العلمية" قاما بالرد على مؤلفات مصطفى بوهندي وخديجة.ب، تعرضا لمضايقات أمنية، (أحدهما في مراكش وآخر في القنيطرة)، وذلك قبل صدور انتقادات حسن الكتاني في أسبوعية "العصر". والأدهى أن مجابهة المد الشيعي في الشمال، والتي قادها إمام سني هو الآخر، يدعى محمد الجردي، إمام مسجد نافع، في منتصف التسعينيات، انتهت بصدور تهديدات بالتصفية الجسدية، قبل أن تتدخل وزارة الأوقاف والشؤون الإ سلامية لتهدئة النفوس والأوضاع.
مبدئيا، وبرأي أهل الحديث والفقه ببلد الأولياء، يبقى المغرب، إلى جانب مصر والسعودية، من أهم حصون المقاومة ضد التغلغل الشيعي، وهذا بـ الرغم من الانبهار السياسي لبعض الإسلاميين المغاربة، والذي انتقل للأ سف نحو الانبهار العقائدي، وليست الأزمة الوجودية التي تمر منها إيران اليوم، ومعها تحصيل ملكة العقل النقدي غير الخرافي، سوى بعض المقدمات التي من المفترض أن تعجل بتقزيم الحضور الشيعي بالمغرب.
إسلاميون أبرياء، ولكن!
مجرد تقديم شهادة البراءة للحركات الإسلامية من الاتهامات التي وجهت إليها حول التغلغل الشيعي، يثير العديد من الاستفسارات. قد يكون الأمر مقبولا في بلد يتميز بتعددية المذاهب مثل العراق أو لبنان حيث الحضور الكوزمبولوتي للسنة والشيعة والنصارى.. ، ولكنه يثير الكثير من الشبهات في بلد سني أشعري العقيدة، ومالكي المذهب!
وواضح أن تقديم صك البراءة للسلطة، يعود لأسباب سياسية وليست بـ الضرورة عقائدية.

وعموما، إذا كانت الحركات الإسلامية في الساحة طيلة الثمانينات قد انتهت للفصل منهجيا وعقائديا بينها وبين عقائد الشيعة (الرجعة و المهدوية (الخرافية) والقول بكفر معظم الصحابة ومذهبهم في "زواج المتعة" وترك صلاة الجمعة)، فإنه في المقابل، لم تستطع بعض الأسماء التفريق بين التجربة السياسية للخميني، وحمولته العقائدية، وانتهوا بـ القول بمذهب الشيعة وعقائدهم.

الكتاب المغاربة ونقد التشيع

قليلة هي الأدبيات المغربية التي تعرضت بالنقد والنقض للأدبيات الشيعية، ولا نجد من ضمنها أدبيات محسوبة للحركات الإسلامية البارزة، وفي مقدمتها العدل والإحسان أو التوحيد والإصلاح، ويبقى كل ما هو مسطر، صادرا عن أقلام محسوبة على التيار السلفي الوهابي، ويتقدمها المدعو الزبير دحان أبو سلمان، مؤلف كتاب "ضحايا النشاط الشيعي" و "زواج المتعة في الفقه الشيعي الإمامي"، وهي مؤلفات تجمع ما بين النقد والقذف في آن، حيث نبرة الخطاب السلفي المتشدد. ويبقى أهم مبحث صدر عن قلم مغربي يفند من خلاله الأطروحات الشيعية كتاب "ا لأصول الجعفرية الشيعية والاجتهاد المؤطر بالأسطورة" لصاحبه الدكتور محمد عمراني حنشي، (صدر في صيف 2002، 115 صفحة عن مطابع طوب بريس) حيث تحدث المؤلف في مقدمة الكتاب "الصعوبات الإ جرائية التي تكتنف كل عمل حفري تاريخي، من جهة الرصد والتتبع الحثيث لمثل هذه الظواهر السياسية والعقائدية المعقدة"، منبها إلى محاذير الوقوع في "شرك الاختزال المخل، أو الأحكام المتحيزة المسبقة ، أو التنميط السطحي المشوه، أو التصنيف الاعتباطي الأهوائي المؤدلج" ، والحال أن مثل هذا البناء النظري الصلب في التعامل مع ظاهرة التشيع في الإسلام، ظل بعيد المنال على الدارسين لسببين منهجين رئيسيين:

·?عدم أخذهم في الحسبان بأهم ملمحين في الرسالة الإسلامية الجديدة، وهما "العالمية" و"الخاتمية" كمفتاحين مفهومين محوريين ناسخين لكل "محلية" أو "خصوصية" في الشرائع قبلها، وبالتالي عدم انتباههم لما في ظاهرة التشيع، كما تطورت تاريخيا في الإسلام، من مصادمة ضدية نقيضة لمثل هذا التصور المنظوري العام.

·?إغفالهم للجانب الأسطوري الشعوبي القومي في "الظاهرة" وعدم قدرتهم على التعامل مع النصوص.

الأهم في المبحث أن صاحبة اعتمد فقط على المراجع الشيعية لنقض هذه الأسس، دون الاستشهاد بأي مراجع سنية، ولذلك اعتبر عند الباحثين المتتبعين من أخطر ما صدر في نقض الأسس المذهبية للفكر الشيعي.

---

(1) أغلب الباحثين الإسلاميين لا يملكون الشجاعة للتنديد بما آلت إليه هذا الثورات الكارثية، سنية كانت في السودان أو الجزائر، أو شيعية في

إيران، حيث تم سفك الدماء باسم إيديولوجيات سياسية مغطاة بلبوس ديني.
(2) هناك كتاب مخصص لتفنيد صدقية هذه الأطروحة ألفه الباحث المغربي محمد عمراني حنشي